سيميائية العنوان ودلالة الألوان في رواية حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر لـ: عز الدين جلاوجي "أنموذجا"

أ . غنية بوحرة
جامعة الحاج لخضر باتنة/ الجزائر

مما لاشك فيه أن الدراسات السيميائية الحديثة اهتمت اهتماما كبيرا بدراسة وتحليل العنوان تحليلا عميقا، باعتباره أهم عناصر النص الموازي التي يستند إليها في فهم النص السردي، من خلال فك شفراته ورموزه التي تسمح للقارئ الولوج إلى عالم النص الروائي لاستكناه معانيه وفهم دلالاته. ذلك أن العنوان «نص مختزل ومكثف ومختصر، إنه نظام دلالي رامز، له بنيته الدلالية السطحية وأبنيته الدلالية العميقة مثل النص»[1] وهو أيضا مفتاح أساسي للولوج إلى أغوار النص العميقة و «الموجه الرئيس للنص بنوعيه، والعنوان من خلال طبيعته المرجعية و الإحالية يتضمن غالبا أبعادا تناصية، فهو دال إشهاري وإحالي يوحي إلى تداخل النصوص وتلاقحها وارتباطها ببعض المحاور، ويعلن كذلك عن قصدية المبدع أو المنتج وأهدافه الأيديولوجية والفنية، إنها إحالية تناصية و توضيح لم غمض من علامات وإشارات فهو إذا النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص»»[2].

فإذا كان العنوان دالا إشهاريا وإحاليا يحمل أبعادا تناصية، فإن الألوان هي الأخرى لها وظيفتها الإحالية والتأثيرية إلى جانب الوظيفة الجمالية والفنية، بل تعكس قيما اجتماعية

وأيديولوجية ودينية و نفسية، في دلالات مكثفة ومركزة، تربطها بالعنوان والنص السردي علاقة وثيقة، ذلك أن «اللون في النص الروائي له مدلول رمزي، والألوان تعتبر من الأدوات الأساسية في بناء النص الروائي، والروائي المبدع هو القادر على ابتكار دلالات لونية جديدة، تكتنز رموزا موحية، تحيل إلى أحداث العمل الروائي، وتطرح دلالات اللون طرحا جديدا، يحدد استقلالية اللون من تبعيته الثقافية السائدة»[3]

وإذا كان العنوان قد لقي اهتماما بالغا من طرف الباحثين والدارسين في الدراسات السيميائية الحديثة، فإن الألوان هي الأخرى قد حظيت باهتمام الدارسين وعلماء النفس بعيدا عن الدراسات السردية إذ «تتبع السيميائيون وعلماء النفس هذه الألوان واكتشفوا في تحليلاتهم أبعادا تأثرية نفسية أكثر عمقا ودونوا عليها تطبيقاتهم في العلاج النفسي وتوجيه سلوك الإنسان بشكل عام»[4] ، ونظرا لأهمية الألوان في الكشف عن أغوار النفس البشرية وعكس وترجمة حالتها النفسية فقد عرفت « دراسة سيميائية الألوان في العصر الحديث قفزة كبيرة ورواجا واسعا في الدراسة الغربية، فطبقت في الفن التشكيلي والسينما والمسرح وفي فنون القول نجد على رأسها الشعر كونه أكثر الفنون استجابة لخلجات العواطف ودغدغات المشاعر الانسانية والفيض العاطفي النبيل...»[5] ، غير أننا لاحظنا تهميش البحث في دلالة الألوان في الدراسات السردية على الرغم من اهتمام الكتاب المعاصرين بالتشكيل الفني والجمالي لأعمالهم الروائية، لكن تبقى مقصدية الكاتب في اختيار الألوان المناسبة لعناصر النص الموازي وتوظيفها في المتن الروائي هي الدافع الأول للاهتمام بها من طرف الباحثين من أجل قراءتها قراءة جادة

وتحليلها واستنباط معانيها، ومن ثم منحها بعدا تأويليا و دلاليا يعكس دلالة العنوان وعمق النص السردي. هذا ما دفعنا إلى اختيار رواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" بألوانها الدافئة التي ميزت غلاف الرواية، و التي تغري المتلقي وتدفعه إلى التساؤل عن دلالة الألوان التي كُتب بها عنوان المدونة ومدى تطابق الدلالات التي تؤديها كل من الألوان وكلمات العنوان وعكسهما معاً مضمون النص الروائي، وكيف أن الروائي اختار هذه الألوان دون غيرها. لذلك فإن هذه الدراسة تطمح إلى البحث في علاقة اللون بالعنوان والوقوف على دلالة ألوان عتبة النص، ومدى تقاطع دلالة كل من اللون الموظف والعنوان المختار وعكسهما لأغوار ومضمون النص الروائي اعتمادا على خطاطات توضيحية تساعد القارئ على الفهم أكثر وتبسيط منهجية الدراسة، باعتماد المنهج السيميائي التأويلي «لأنه من أقرب المناهج التي تبحث في علاقة السرد بالمدركات الحسية»[6]

إن اختيار الروائي " عزالدين جلاوجي" للونين مختلفين من الألوان الحارة والدافئة ليس اختيارا عشوائيا ، بل عن قصد ووعي أراد من خلاله إبلاغ رسالة معينة إلى المتلقي الذي يعمل على فك رموزها وشفراتها واستكناه دلالاتها ومعرفة معانيها. فقد اختار اللون الأحمر في الشق الأول من العنوان "حوبة ورحلة البحث عن" واللون الأصفر في الشق الثاني "المهدي المنتظر" فوق خلفية سوداء حالكة يتوسطها بدر ليلة تمامه يسيطر عليه اللون الرمادي. وسوف نتناول كل كلمات العنوان على حدة بدءا بكلمة حوبة ودلالة اللون الأحمر الذي كتبت به وفقا للمخطط رقم (١) ليتاح للقارئ تكوين تصور عام يمكنه من مسايرة التحليل ومتابعته.

١. **حوبة ودلالة اللون الأحمر**: قبل أن نتناول الحديث عن دلالة اللون الأحمر الذي خطت به كلمة حوبة لابد من العودة إلى المعنى اللغوي لهذه الكلمة ثم ننتقل بعدها إلى الحديث عن رمزيتها داخل المتن الروائي لنختم دراستنا لهذا العنصر بالإشارة إلى دلالة اللون الأحمر وارتباطه بحوبة.

أ. **المعنى اللغوي:** جاء في لسان العرب "الحوبة" الأبوان والأخت والبنت. وقيل: لِي فيهم حَوْبَةٌ وحُوبَةٌ وحِيبَةٌ أَي قرابة من قِبَلِ الأُمّ، وكذلك كلُّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ. قال أَبو زيد: لي فيهم حَوْبَة إِذا كانت قرابةً من قِبَلِ الأُمّ، وكذلك كلُّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ. وفي الحديث: اتَّقُوا اللهَ في الحَوْبَاتِ؛ يريدُ النِّساءَ المُحْتاجات، اللاَّتي لا يَسْتَغْنِينَ عَمَّنْ يقومُ عليهِنَّ، ويَتَعَهَّدُهُنَّ؛ والحَوْبَةُ الحاجَة. في حديث الدعاءِ: إِليك أَرْفَعُ حَوْبَتي أَي حاجَتي. والحَوْبَة رقة فُؤَادِ الأُمّ[7].

ب. **رمزية حوبة:** حوبة في الرواية هي الشخصية الساردة الحقيقية التي تروي الأحداث بكل تفاصيلها مشافهة للراوي/الكاتب الذي أخذ على عاتقه تدوين وتسجيل ما تحكيه له حوبة بقلمه المبدع ولغته الشعرية التي تأسر قلب القارئ وتأخذ بلبه، لترحل به عبر عالم المتخيل الروائي إلى أحداث متشعبة ومتنوعة وشخصيات متعددة، حيث استطاع من خلال كل ذلك أن يختصر فترة طويلة من تاريخ الجزائر في ٥٥٧ صفحة وفي ذلك يقول السارد وهو يخاطب حوبته: «روايتك للحكاية إبداع، وكتابتي لروايتك إبداع ثان، ولا معنى لرواية هزيلة اللغة والأسلوب. كانت حوبة قد روت لي الحكاية منذ أسبوعين تقريبا، وأنا أجلس مرتخيا متلذذا بشهوتها، وكنت حريصا بالتقاط كل تفاصيلها، فاسحا لقلمي المجال كي يحلق ما شاء له التحليق.»[8] .

إن الشخصية النسوية التي استعان بها الكاتب لكتابة روايته في الحقيقة ليست تلك المرأة الحبيبة /الجسد، وإنما هي رمز للوطن للأرض المسلوبة وشعبها المقهور. إنها الأم الصبورة والثكلى التي تنعى ابناءها، إنها الجزائر التي تحكي مأساتها وآلامها وأحزانها ونضال شعبها وبسالة أبنائها ورفضه للمستعمر واستبداده وتسلطه، إنها الجزائر التي أبت إلا أن تروي تاريخها حتى يُنقش في الذاكرة التي لا تموت أبدا، وحتى لا يُنسى هذا التاريخ المجيد بكل ما يحمله من تناقضات ومآسي، لذلك فالراوي مشتاق لسماع الحكاية كاملة ومشتاق أكثر للقاء هذا الوطن الذي لا تأفل شمسه ولا تذبل وروده «بقدر ما كنت مشتاقا لإتمام الحكاية كنت مشتاقا إلى حوبة، أن أجلس إليها، أن أسمع منها حكايتها التي لا تنتهي، أن أتصفح وجهها وردة أزلية لا تذبل أبدا»[9] . فعلى الرغم من كثرة الأحداث التي أثقلت كاهلها إلا أنها لازلت كالوردة الأزلية الأسطورية التي لا تذبل على مر الأزمان والسنين.

إن توظيف صورة المرأة في رواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" لم يعد غاية وهدفا في حد ذاتها «يحدد ذاتها بل وسيلة للالتصاق بالأرض»[10] ورمزا يحمل بعدا وطنيا لاشتراكهما في أسمى معاني الحب والاحتواء والاتساع والتسامح. هذا الوطن الذي يبحث عن الحرية المنتزعة، هذه الحوبة/ الوطن المصبوغة بلون الدماء وهو نفس اللون الذي كتبت به كلمة "حوبة" هي حمراء بما تحمله من أثار الغضب والثورة والهجوم والثأر والقتل والدماء...،تبحث عن الحرية الحمراء بنضال شعبها واستشهاد أبنائها من أجل استقلالها وانفصالها عن فرنسا التي تحتفل بمرور عقد كامل على دخولها واحتلالها الجزائر.

إذا عدنا وتأملنا المعنى اللغوي لكلمة حوبة وجدناها تعني القرابة من الأم (الأخت ، البنت) وأيضا رقة فؤاد الأم .أليست هذه المرأة بتنوعها هي الوطن ، إذ إن اختيار الكاتب لهذا الاسم لم يكن عشوائيا ودون خلفية ومرجعية مسبقة، إذ كان بإمكانه أن يختار اسم فاطمة على سبيل المثال للعلاقة التي تربط بين فاطمة رضي الله عنها والمهدي المنتظر الذي هو من سلالة علي وفاطمة آل بيت الرسول صل الله عليه وسلم. غير أنه أراد أن يجمع بين المعنى اللغوي والدلالي "لحوبة" لتكون صورة واحدة وموحدة فهي تمثل أقرب الناس إليه في كل الحالات و لا يمكن التخلي عنها مهما كان سواء كانت أم، أخت، حبيبة المهم أن المعنى واحد تعكس حبه وشوقه إليها وحنينه إلى هذا الوطن المسلوب ، فيكون جلاوجي بذلك قد أبدع في ربط صورة الوطن بالمرأة بتنوعها.

ج .دلالة اللون الأحمر وارتباطه بحوبة إن للألوان تأثيرا مباشرا على نفسية الإنسان ومشاعره الانسانية، ويخضع اختيار الألوان للحالة الشعورية والنفسية والثقافية لكل شخص، كما أن التعلق بألوان بعينها يختلف باختلاف الأذواق ومدى قدرتها التأثيرية وإحداث تغيرات نفسية على الإنسان لارتباطها بمفاهيم ومدلولات معينة، لها علاقة مباشرة بالإنسان في شتى حالاته الشعورية (الهدوء، الراحة، السكينة، الاضطراب، القلق...)كما أن « للون خصائص انفعالية يستجيب لها البصر ويغذيها الخيال، حيث يستثير المتلقين على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم، وتباين عاداتهم وتقاليدهم، وهناك علاقة وثيقة بين المثير والاستجابة الناتجة عن اللون، لكن الاستجابة مرتبطة بالمرجعية الثقافية، وهذا يعني افتراض وجود علاقة بين المعجم اللوني ومجالات التعبير الحقيقي أو

المجازي في الفنون القولية»[11]، لذلك سوف نبحث عن دلالة اللون الأحمر الذي استعان به الكاتب في تلوين كلمات عنوانه بدءا بشخصية "حوبه"، ومن معاني هذا اللون أنه مرتبط في اللغة العربية بالمشقة والشدة وهو مأخوذ من لون الدم، وفي التراث مرتبط دائما بالمزاج القوي وبالشجاعة والثأر[12]، واللون الأحمر هو لون النار ولون الدم، فمثلما يكون الدم طاهرا وإيجابيا يكون فاسدا وسلبيا. وكذلك هو لون الإثارة والخطيئة [13] «يثير روح الهجوم والغزو والافتتان والشجاعة والثأر ويخلق في الانسان نوعا من التوتر»[14].ونجد أن دلالات هذا اللون تنطبق وتتشابك مع دلالات "حوبة" باعتبارها ذلك الوطن الذي عاش الحرمان والقهر الاجتماعي إلى جانب عيش الذل والمهانة وسط المستعمر الذي كبد حريته، هو فعلا يمثل شقاء الفرد الجزائري، هذا من جهة ومن جهة أخرى وعي الشعب بضرورة التخلص من كيد المستعمر من خلال الثورات التي قامت في مختلف ربوع الوطن، وأيضا شجاعة وبسالة الشباب الجزائري ورغبته في الثأر والانتصار ممثلا ذلك في شخصية "العربي موستاش" الذي دافع عن حبه/حمامة، وأرضه وعرضه، واستطاع أن يتخلص من أحد أتباع فرنسا.

إذا رجعنا إلى النص الروائي نجد أن الروائي قد استعان بصورة امرأة أخرى هي الوجه الآخر للوطن تشبه كثيرا حوبة وتُذكّر السارد بها وإن تساءل كثيرا عن حقيقتها في قوله: «لقد أكّدت لي حوبة قبل بدء الحكاية أنها موجودة داخلها، هل هي فرع من حمامة؟ لست أدري لماذا كنت أراها كذلك؟ ولست أدري لماذا كلما ذكرت حمامة تبدت لي ملامح حوبة؟»[15].بل نقول إن حوبة هي حمامة في حد ذاتها، حوبة التي تمثل صورة الوطن/ المتشائم من خلال اللون الأحمر

الذي البسه إياها الكاتب والأحداث التي عاشها الوطن وتجرع مرارتها الشعب، وحمامة/ الوطن رمز السلام والتفاؤل .إذن حوبة هي الجزائر الكائنة وحمامة هي الجزائر الممكنة التي يتمناه الراوي ويبحث عنها في الرواية. ويبقى السؤال المطروح هل تحقق له ذلك، وإذا كان الجواب نعم فمن هو هذا المنقذ الذي أعاد الوجه الجميل/حمامة لحوبة؟

ونخلص إلى أن الروائي استطاع أن يمزج بين المرأة / الحبيبة/ الأم/ الأخت وبين الأرض/ الوطن مزجا يصعب التمييز فيه بين حب المرأة بحب الوطن، هو بالأحرى حب واحد موحد لا يذبل ولا يموت أبدا.

أ. **الرحلة ودلالة اللون الأحمر:** سنتتبع المنهجية نفسها في دراسة هذا العنصر بدءا بالمعنى اللغوي

ب. **المعنى اللغوي:** قال :رَحَلْتُ له نفسي، إذا صبَرتَ على أذاه.، رَحَلَ فلان وارْتَحَلَ وتَرَحَّلَ بمعنىً، والاسمُ الرَحيلُ، واسْتَرْحَلَهُ، أي سأله أن يَرْحَلَ له. أبو عمرو :الرُحْلَةُ بالضم: الوجهُ الذي تريده. يقال: أنتم رُحْلَتي، أي الذين أَرْتَحِلُ إليهم، الرَحْلَةُ بالكسر: الارْتِحالُ، يقال: دَنَتْ رِحْلَتُنا. وأَرْحَلَتِ الإبلُ، إذا سمنتْ بعد هُزال فأطاقت الرِحْلَةَ[16].

ج. **دلالة الرحلة:** الرحلة عادة تحمل معنى التجوال والسفر، وتحتمل هذه الرحلة أمريين: إما أن تكون رحلة ممتعة ومريحة، وإما أن تكون شاقة ومضنية، وقد يكون المكان المراد بلوغه قريبا أو بعيدا، كما قد تكون الرحلة حقيقية أو رمزية. ما يجعل القارئ يتساءل عن وجهة حوبة ورحلتها. هل هي رحلة واقعية يراد بها بلوغ مكان محدد، أم أنها رحلة إلى عالم مجهول. ثم هي رحلة ماذا وعن ماذا؟ أي هل هي رحلة للفسحة أم رحلة

للبحث؟ ليجيب الكاتب في النصف الثاني من الشق الأول من جملة العنوان بأنها "**رحلة البحث عن المهدي المنتظر**".

حينما يقرأ القارئ الرواية ويتغلغل في عمق أحداثها يحاول أن يتعرف على مدلولات العنوان في المتن الروائي ومدى قدرة الكاتب على عكس أحداث النص واختزالها في كلمات. فأول ما يوجه القارئ الكلمات المكونة للعنوان وهي: حوبة/ الرحلة/ البحث/ المهدي، بدءا يتفاجأ أن حوبة ما هي إلا صديقة الراوي التي تحكي له أحداث الرواية، وليست شخصية روائية رئيسة كما تصورها في ذهنه تساهم في بناء أحداث الرواية كما هو الحال عادة في الروايات التقليدية، فيكون الكاتب قد نجح في كسر أفق توقع القارئ عند أول دال واجه المتلقي، ثم يترك القارئ حوبة جانبا ليتساءل عن أي شيء تبحث عنه في رحلتها عبر أحداث الرواية، فإذا به يتفاجأ مرة أخرى بأن هذه الرحلة ليست رحلة حقيقية عبر أمكنة واقعية، إنما هي رحلة وهمية ومعنوية خيبت كل التوقعات.

ج. دلالة اللون الأحمر وارتباطه بالرحلة:

إن اللون الأحمر كما أشرنا سابقا من الألوان الساخنة الأكثر لفتا للنظر «يحمل معنى الخطر والإثارة، يدل على العنف للإشارة على المقاومة والصراع»[17] فهل هناك ما يدل على المقاومة والصراع والعنف وإراقة الدماء في رحلة تاريخ الجزائر في المدونة محل الدراسة؟

إن أحداث الرواية التي أبدع الروائي في نسجها هي أحداث تاريخية بالدرجة الأولى، يتداخل فيها الاجتماعي بالسياسي بالديني، أحسن حبكها وربط حلقاتها فغدت كالعقد متماسكة حباتها متسلسلة في نظام واحد تتطور وتنمو أحداثها وشخصياتها،

تتخللها بعض الاسترجاعات، كما تشير إلى تسلط زعماء القبائل وشيوخ الزوايا وانتشار الطرقية وتضامنها مع السلطات الفرنسية، واحتقارهم للجزائريين وقتلهم، وانتشار الفساد والرذيلة في المدينة التي تحولت وكرا للبغاء، واستفحال القتل واستشراء الظلم، وانتشار الفقر والجهل والأمية، وغياب الوعي السياسي والثقافي...كل هذه الملفوظات تنم عن السلبية وتحمل معاني الشقاء والقلق والصراع والرغبة في المقاومة لاسترجاع الحرية المسلوبة.

في ظل هذه الأوضاع المتردية التي تعيشها الجزائر وانتشار الفوضى وتلاشي الهوية وغياب الوعي، وفي هذا الفضاء الجغرافي الواسع الذي يجمع بين كل هذه الصور تكمن الرحلة الحوبية حينما انطلقت تسرد أحداثها للراوي. فالرحلة اذن هي رحلة شاقة متعبة مصبوغة بلون الدماء والشقاء خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. هي رحلة حمراء فعلا كاللون الذي كتبت به بما تحمله من المعاني السلبية السالفة الذكر.

٣. البحث ودلالة اللون الأحمر:

أ. **المعنى اللغوي:** البَحْثُ: طَلَبُكَ الشيءَ في التُّراب؛ بَحَثَه يَبْحَثُه بَحْثاً، وابْتَحَثَه. والبَحْثُ أَن تَسْأَل عن شيء، وتَسْتَخْبر. وبحث عن الخَبر وبَحَثَه يَبْحَثُه بَحْثاً: سأَل، وكذلك اسْتَبْحَثَه، واسْتَبْحَثَ عنه. الأَزهري: اسْتَبْحَثْتُ وابْتَحَثْتُ وتَبَحَّثْتُ عن الشيء، بمعنى واحد أَي فَتَّشْتُ عنه[18].

ب. **دلالة البحث:** عادة ما تستعمل كلمة البحث للدلالة على الرغبة الملحة في إيجاد شيء ما والحصول عليه، وقد يكون هذا البحث هو الآخر متعبا ومملا، وقد يكون ممتعا ومشوقا حسب الظروف المحيطة بعملية البحث. فما هو الشيء المبحوث عنه في الرواية؟ هل هو شيء

حسي ملموس أم هو معنوي ورمزي؟ ولا شك أن الشق الثاني من جملة العنوان يجيب عن هذا السؤال فذكر الكاتب أن حوبة تبحث عن المهدي المنتظر. فمن هو هذا المهدي أهو شخصية تخيلية أم هو رمز للدلالة على شيء ما؟

أشارت أحداث الرواية إلى بحث شخصياتها الروائية عن الكثير من المعاني السامية التي لا يمكن للفرد أن يستغني عنها، وإن فقدها فقد معنى الحياة. إنها تبحث عن الأمن والاستقرار عن الحب والسعادة وعن الحرية والأمل، وإن شعبا كالشعب الجزائري يعيش في ظل الهيمنة الاستعمارية مسلوب الهوية والحرية يتوق لمثل هذه الصفات ويدفع أغلى ما يملك من أجل عيشة هنية وحياة كريمة، فهو لا يقبل بحياة الذل والمهانة ما دام أنه يؤمن أن الجزائر هي وطنه على الرغم من إيهام السلطات الفرنسية بأنه لا وجود لها وأنها جزء لا يتجزأ من فرنسا.

إذن عملية البحث في هذه المدونة ليست سهلة بل تكتنفها الكثير من الصعوبات والعوائق وتتطلب التحلي بالكثير من الصبر والتعقل، وعدم اليأس والاستسلام. فحوبة كانت تبحث في ذاكرة الجزائر عن شعب لا يُقهر وحرية لا تُسلب وأمل لا يغيب وسعادة لابد أن ترسم على شفاه المحرومين مما يعكس حقيقة البحث الرمزية.

اللون الأحمر وارتباطه بالبحث: بما أن عملية البحث تكتنفها صعوبات وعوائق جمة تمنع من مواصلة مسيرة البحث، فإن الكاتب قد أصاب حينما اختار اللون الأحمر لرسم هذه الكلمة لِم يحمله اللون الأحمر من معنى الخطر والشدة والبلاء والفتنة التي قد تواجه الباحث أثنا ء عملية بحثه ورحلته. فالبحث عن الحرية مثلا يتطلب دفع الدماء ثمنا لذلك

وهذه الأخيرة تشير إلى الصراع والمقاومة والابتلاء وهي من معاني اللون الأحمر.

٢. المهدي المنتظر ودلالة اللون الأصفر:

أ. **المعنى اللغوي:** الهُدى: الرشادُ والدلالةُ، يؤنَّث ويذكَّر. يقال: هَداهُ الله للدين هُدًى. وقوله تعالى: "أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ"، قال أبو عمرو بن العلاء: أو لم يُبَيِّنْ لهم. وهَدَيْتُهُ الطريق والبيت هِدايَةً، أي عرَّفته، هذه لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقول: هَدَيْتُهُ إلى الطريق وإلى الدار، وقوله تعالى: "فإنَّ الله لا يَهْدي من يُضِلّ" قال الفراء: يريد لا يَهْتَدي[19].

ب. **عقيدة المهدي المنتظر:** مما لاشك فيه أن القارئ بمجرد قراءته لجملة "المهدي المنتظر" يحدث له ربط ذهني منطقي مباشر بفكرة وعقيد الرجعة بعد الموت وعودة الإمام المهدي المنتظر في آخر الزمان. وقد اختلفت شخصية المهدي من عقيدة إلى أخرى وكلٌّ تعتقد برجعته وتنتظر مهديها وتتوقع ظهوره لرفع الظلم والفساد ونشر الحق والعدل والسلام، ليملأ الأرض عدلا وقسطا بعدما ملئت جورا وظلما.

فالمهدي المنتظر في العقيدة الإسلامية يحيل إلى فكرة الرجعة والظهور في آخر الزمان ويكون اسمه يواطئ اسم الرسول محمد صلى الله عليه مسلم، وقد وردت أحاديث تشير إلى عودة المهدي ودروره في نشر العدل والقسط في المجتمع الإسلامي المثالي «مجتمع الوفرة الذي يفترض أن تنتهي فيه أوضاع العوز والفاقة وتصبح الخيرات فيه كافية لتلبية جميع الحاجات، وهذا الاعتقاد من جانب السنة يعكس إيمانهم بابتعاد أنظمة الحكم القائمة عن هذه الصور المثالية مجرد إيمان دون سعي لمحاولة تغيير هذه الصور

الواقعية انتظارا للمهدي المنتظر الذي سيتولى بنفسه مهمة تغيير لأنظمة الحكم الجائرة في الدولة الإسلامية وتحقيق الصورة المثالية للمدينة الفاضلة»[22]

أما عند الشيعة فعلى الرغم من اختلاف فرق الشيعة غير أنهم يتفقون جميعا بعودة الإمام المختفي ويعني عندهم رد حق العلويين المهضوم، وتعني أن الإمام العادل أو المهدي المنتظر هو وحده القادر على أن يملأ الدنيا حقا وعدلا.

وعقيدة المهدي المنتظر غالبا ما تظهر عقب الهزائم السياسية والعسكرية للمسلمين وانتشار الفساد واستشراء الظلم والجور ومن أمثلة ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

-المهدي بن تومرت -حركة المهدي تهامة -حركة المهدي الذي ظهر في مصر أثناء حملة نابليون بونابرت في أواخر ١٢١٣هـ[25].

ج. رمزية المهدي ودلالته في الرواية: إن شعرية العنونة عند عز الدين جلاوجي تكمن في قدرته منح العنوان بعدا رمزيا ودلاليا، إلى جانب البعد التناصي ذو الدلالات الإشارية والإحالية التي تعكس حضور رمز المهدي المنتظر في العقيدة الدينية، لتكشف عن مقصدية المبدع الفنية وتوضيح ما غمض من علامات إشارية في المتن الروائي والتي يسعى القارئ جهده في فكها وحل رموزها بمنحها بعدا تأويليا تفسيريا، ذلك أن القارئ لرواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر" يستحضر صورة الشخصية الدينية التي تظهر في آخر الزمان لتملأ الأرض عدلا وقسطا بعدما ملئت ظلما وجورا، مما يحيل على أن الواقع الذي تناوله الكاتب هو واقع مرير يملأه الظلم ،والحيف، والزيف،

والفساد، والتسلط، والضياع، والقلق، والتوتر، والفوضى، والصراع، والعنف، ما جعل الروائي يستدعي شخصية المنقذ والمنجد الذي يخلص العالم من حالة الفوضى والظلم والصراع الذي يسيطر عليه. لذلك فنحن نتساءل عن دلالة ورمزية هذه الشخصية وفيما تجلت صورة المهدي؟ أو من هو المهدي المنتظر في الرواية؟ أيُّ شخصية روائية أدت دور المنقذ؟ أم أن المهدي تجلى في صور أخرى. ماهي إذن صور تجلي المهدي، أم أن المهدي المنتظر لا وجود له في النص الروائي وما ذلك إلا تمويه وتضليل للقارئ لا غير؟

قبل أن نجيب عن هذه التساؤلات تجدر الإشارة إلى أن الشخصيات الروائية هي الأخرى كانت تبحث عن هذا المنقذ وتتساءل عن حقيقته كلما سمعت اسم شخصية "البهلي لخضر" الذي لا يفتأ يكررها في كل مرة، غير أنها(الشخصيات الروائية) ناقمة ورافضة لشخصية المنقذ لأنها تمثل الظلم في حد ذاته، إنها شخصية "القايد عباس" شيخ قبيلة "أولاد النش: الذي يمثل السلطة العسكرية، عميل فرنسا ومعاونها ضد أبناء وطنه، إنه الابن البار لفرنسا الذي لا يرفض لها طلبا ولا هي ترفض له ذلك إذا ما احتاج إلى شيء عن طريق صديقه "عمار" شيخ زاوية "أولاد سيدي بوقبة" الذي يمثل هو الآخر السلطة الدينية.

يقول "البُهلي لخضر" «االنار تأكل الظالم، الظالم يطغى ويزيد ضربة الله تضرب مرة لا تعيد، الأرض عطشانة، دمنا يرويها، قلوبنا خربانا غلنا يسقيها،

صمت لحظة ثم رفع صوته إلى السماء.

يا ناس يا ناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين يبدا، والنفوس له

تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس بلادنا»[28] فتشير ملفوظات الدرويش الزاهد إلى انتشار الظلم وطغيان الظالم الذي لا يقدر عليه غير الله تعالى، كما توحي إلى أن أرضه متعطشة إلى دم طاهر يرويها وكأنه بذلك يدعوهم إلى الجهاد والقتال والنضال من أجل التخلص من نير الظلم والظالمين، غير أن أهل القرية لم يكونوا ليستوعبوا أو يفهموا قول "البهلي". ولم يتمكنوا من فهمها وحل رموزها واكتفوا فقط بتأويل العبارة الثانية على أن سيد الناس الذي يرفع قدر وطنهم ويعز نفوسهم هو " القايد عباس" لكون اسمه يبدأ بحرف العين فيقول "لكحل" وهو غير راض عن قول "البهلي" مخاطبا زوجته: «أردناه عونا على العباس الظالم، فإذا به يجعل منه سيد الناس.

–ومن أدراك أنه يقصده؟

–ومن غيره يبدأ بالعين ويمكن أن يكون سيدا؟»[29] .

فهل يمكن للروائي عز الدين جلاوجي أن يفصح عن مهديّه ويقدمه في صحن من ذهب لقارئه في الصفحات الأولى للرواية وهل صدق حدس هذه الشخصيات أم أنه يريد أن يفاجئ قارئه بظهور شخصية أخرى؟

في الحقيقة أن القارئ كلما قرأ جزا من الرواية يعتقد أنه قد عثر على رمز المهدي والذي تجلى في صور متعددة، فبدءا يقرر أن رمز المهدي تبدى في **الأحزاب والحركات الإصلاحية** (جمعية العلماء المسلمين، نجم شمال إفريقيا حزب الشعب، حزب الثورة) التي تمثل رمز الخلاص من نير الاستعمار من خلال ما تقوم به من بناء المدارس والجمعيات، وتأسيس الصحف والمجلات ،وتوعية الشعب وتنوير عقله وتوضيح حقيقة المستعمر ومراميه فيقول "سي الهادي" أحد الشخصيات الروائية «الجماعات والأحزاب يا إخوان ليست غايات ولكنها وسائل، وهدفنا

الأكبر هو وطننا، ولذلك لا مانع في النضال داخل كل جماعة تحمل قناعاتي»[30].

إذن فغاية هذه الأحزاب هي تخليص الشعب من ظلم المستعمر واستعادة وطنهم المسلوب الذي ادعت فرنسا أنه لا وجود له ، ونشر الفضيلة بدل الرذيلة، والعلم مكان الجهل، والعدل بدل الظلم، ومحاربة كل أنواع الأوبئة الاجتماعية التي شاعت وانتشرت في تلك الفترة.

كما تجلى المهدي أيضا في **صورة العلم والوعي الثقافي** لاعتقادهم الجازم أن التغيير لابد أن يكون بتحرير العقل من الأفكار المسمومة التي زرعتها فرنسا في عقول أبناء الشعب وحشت بها رؤوسهم ولا يتأتى ذلك إلا من خلال نشر الوعي الثقافي والدعوة إلى العلم، وهذا ما عبرت عنه الشخصيات الروائية بدعوة "حسان بلخير" إلى النضال الثقافي لاسترجاع الهوية الثقافية لتحرير الشعب من قيود المستعمر وبناء دولة قوية من خلال الوعي الصادق والاعتقاد الجازم بأن الأمم والشعوب لا ترقى إلا برقي العلم الذي يخرجها من الظلمات إلى النور، فاتفق الجميع على «تكاتف الجهود لتمزيق حجب الجهل والتخلف، العلم هو السبيل الوحيد لتحرر الأمم وتقدمها وازدهارها»[31] لذلك قرر الجميع ممارسة القراءة جهارا في المدينة لإغاظة الفرنسيين، فكان «ذلك اليوم مشهودا، حين اتفق الجميع على قراءة الصحف والكتب بالعربية، علانية أمام الفرنسيين في الشوارع والقطارات والحافلات والمؤسسات تأكيدا على الانتماء، ورفضا لهيمنة فرنسا ولغتها مما أثار دهشة المستعمرين»[32].

وأخيرا تجلى المهدي في **صورة الشعب ونضاله** ورغبته الملحة في الانتصار و«الجهاد وحده هو الطريق الأسلم لاسترداد

الحقوق، وعلى الجزائريين إن أرادوا تحقيق حلمهم أن يخططوا للأمر جيدا، ولا يكرروا أخطاء أسلافهم في ثوراتهم الشعبية»[33] ولم تتحقق لهم هذه الفكرة إلا بعد الوعي التام بضرورة تكتيف جهودهم السبيل الوحيد إلى الانتصار من أجل إحلال الحق محل الباطل، وملء أرض الوطن حبا، وأملا، وسعادة، ورخاء، وأمنا، وسلاما، وعدلا، وقسطا. بعدما فقدوا كل هذه المعاني والصفات زمن الاحتلال.

من خلال تحليلنا وتأويلنا لصورة المهدي لازلنا نتساءل هل هذا المهدي في أثوابه المتعددة هو الذي تبحث عنه حوبة إلى جانب المتلقي؟ هل تحقق ذلك في النص الروائي أم لازال يمثل لغزا غامضا ؟

في حقيقة الأمر وعلى الرغم من الصور المختلفة والمتعددة التي تجلى فيها المهدي إلا أنه لم يتحقق ظهوره الفعلي في النص الروائي، وبخاصة وأن نهاية الرواية هي نهاية مفتوحة وأحداثها لم تنته بعد ما يجعلنا ننتظر جزءا آخر علنا نمسك بالخيط الرفيع الذي يقودنا إلى معرفة الحقيقة.

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نلخص صور تجلي المهدي المنتظر في الملحق رقم (٢).

إن توظيف "عز الدين جلاوجي" لرمز المهدي الشخصية الدينية في عتبة النص لفظا وفي مضمون المتن الروائي دلالة لم يكن عبثا، وإنما لغايتين إحداهما جمالية من خلال شعرية العنونة والدلالة التناصية والإحالية التي حققها العنوان وأيضا من خلال الوظيفة الدلالية الضمنية والوظيفة الاغرائية والرمزية التي أثارت فضول القارئ واستفزته وجعلته يبحث عن سر هذه الكلمات وألوانها ودلالتهما في ثنايا النص الروائي، والغاية الثانية للتأكيد على أن الاستبداد والظلم الذي

يقع على عنق الشعب والرغبة في تغيير الواقع السيء والمر واستبداله بواقع أفضل، هو الذي يدفع بالشعب إلى البحث عن شخصية المنقذ من أجل تحقيق المدينة الفاضلة والمثالية.

دلالة اللون الأصفر وارتباطه بالمهدي المنتظر: إذا كان الروائي قد اختار اللون الأحمر للشق الأول من العنوان، فإنه فضل أن يلون كلمات الشق الثاني من عنوان الرواية " المهدي المنتظر" باللون الأصفر وبخط أكبر من الخط الذي كتبت به جملة " حوبة ورحلة البحث عن" فما دلالة اللون الأصفر ولماذا اختار الروائي هذا اللون دون سواه؟

إن اللون الأصفر من الألوان الحارة والساخنة التي تميل إلى الضوء وترتبط بضوء النهار لذلك فهو يثير التحفيز والتهيؤ للنشاط[34]، ومن أهم خصائصه اللمعان وإثارة الانشراح، ولأنه أخف من الأحمر وأقل كثافة منه فهو أميل إلى الإيحاء منه إلى إثارة الانفعال والنشاط الذي يثيره أقل تأكدا، ويفقد التماسك والتخطيط[35]

واللافت للنظر أن جملة " المهدي المنتظر" الملونة باللون الأصفر قد كتبت على واجهة سوداء حالكة، ما يضفي عليها دلالة أخرى أكثر إيحاء، ذلك أن الأصفر مع الأسود يكون أكثر لفتا للانتباه «لذا تطلى بهما الحواجز والكتل المنخفضة وأطراف الأشياء وأحرف الأرصفة للتحذير من التعثر أو التنبيه إلى خطر»[36] . فهل يريد الكاتب أن ينبه إلى خطر ما، أم أراد أن يحذر من قدوم هذا المهدي؟، أم أنه يشير إلى النور الذي يأتي به ليملأ أرض الوطن نورا وضياء ويهتدي به شعبه؟

بما أن اللون الأصفر من الألوان التي تدعو إلى التفاؤل والانشراح والنشاط وتعمل

على التحفيز فإن رمز المهدي المنتظر هو الآخر يدعو إلى التفاؤل والرغبة في تغيير الواقع المرير إلى واقع أفضل، وذلك من خلال أحداث الرواية التي صورت البؤس والحرمان ، والقهر الاجتماعي وانتشار الفقر والمجاعة والقهر الاجتماعي والتأثر بالمجتمع الغربي مما أدى إلى الانحراف الديني والانحلال الخلقي. كل ذلك يثير القلق والتشاؤم الذي عبر عنه بتلوين الغلاف باللون الأسود ليأتي شعاع الأمل وإشراقة شمس الحياة بوعي الشعب وإحساسه بالمسؤولية تجاه وطنه وتفطنه إلى مدى أهمية الوعي الثقافي ونشر العلم في تحرير الشعوب من نير الاستعمار الذي عاث في الأرض فسادا طيلة قرن بكامله، فؤُسست المدارس والجمعيات، والصحف والمجلات ونظمت الأحزاب والحركات الإصلاحية...التي تدعو إلى استرجاع الهوية الثقافية من أجل بناء دولة قوية، وليس هناك لون أبلغ وأصدق من اللون الأصفر تعبيرا عن ذلك لكونه يمثل لون النهار والشمس التي تسطع على العالم لتملأه نورا وحياة وأملا، بعدما أرخى الليل سدوله زمنا من الدهر يبينه الملحق رقم (٣).

لقد تحدثنا سلفا عن رمز المرأة الممثلة في كل من "حمامة" ودلالة اللون الأبيض. وحوبة ودلالة اللون الأحمر وسوف نُفصّل ما جاء في دلالة هذه الأخيرة من خلال علاقتها بأحداث الرواية انطلاقا من المخطط السابق يبينه الملحق رقم (٤).

أبعاد الألوان وعلاقتها بالمتن الروائي:

تحدثنا في هذه الدراسة عن دلالة الألوان وارتباطها بدوال العنوان وسوف نلخص الآن في جدول رقم (٥) أبعاد الألوان التي وظفها الكاتب وعلاقتها بالمتن الروائي وأحداثه.

ويجمع بين كل هذه الأبعاد البعد الجمالي للألوان وجمالية الوظيفة التأثيرية والإحالية التي أداها كل لون من هذه الألوان في عتبات النص، إلى جانب الدلالة الرمزية المكثفة التي لا تتكشف للقارئ إلا بعد قراءته للنص الروائي . وما زاد العنوان شعرية وجمالا تلونه بلونين مختلفين فوق خلفية سوداء تجمع بين الألوان الحارة والباردة لتعكس مضمون النص من خلال تعالقها مع النص الروائي.

إن الروائي عز الدين جلاوجي كشف لنا من خلال روايته "حوبة ورحلته عن المهدي المنتظر" عن قدرته على الجمع بين دوال مختلفة تجمع بين الألوان وملفوظات العنوان التي تعكس دلالة الألوان وشعرية العنوان بتوظيفه للتناص والرمز، فدلالة الألوان برزت أولا في عتبة العنوان ثم تكشفت أكثر في عمق النص. لتكشف بذلك عن براعة الروائي في قدرته على اصطياد القارئ منذ الوهلة الأولى وإثارة فضوله باستعماله للألوان الأكثر إثارة ولفتا للنظر، بمنحها بعد دلاليا ورمزيا إلى جانب ربطها بالبعد التناصي والإحالي للعنوان وتوظيف الرمز باستحضار شخصية المهدي المنتظر التي تفتح بابا من التأويلات.

الملاحق

الملحق رقم (١)

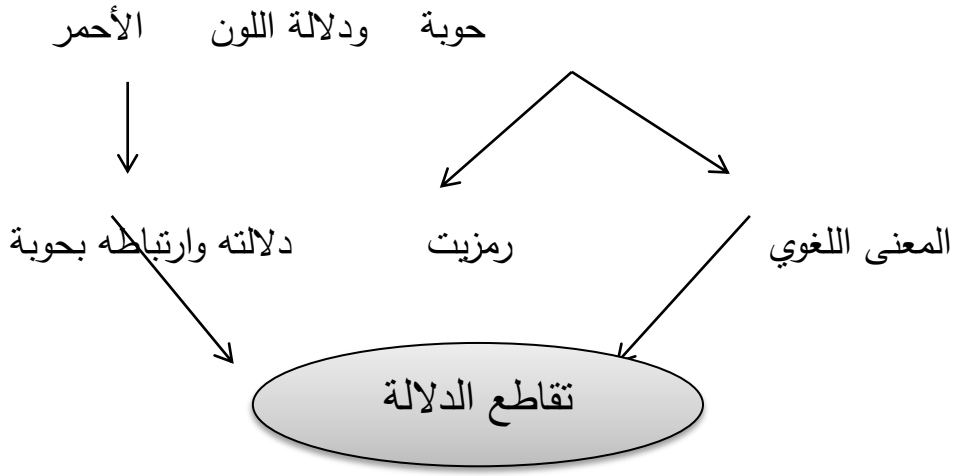

الملحق رقم (٢).

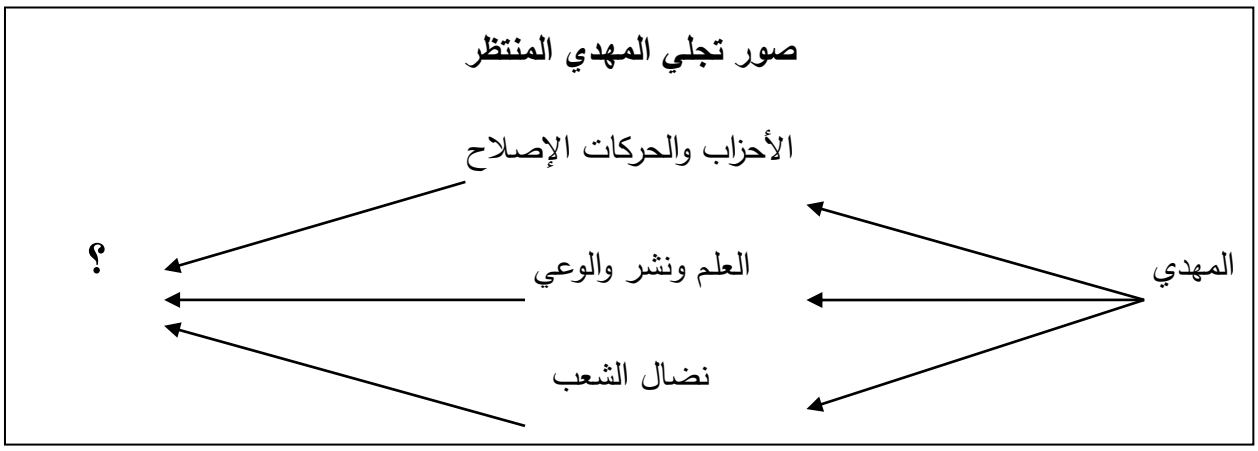

الملحق رقم (٣)

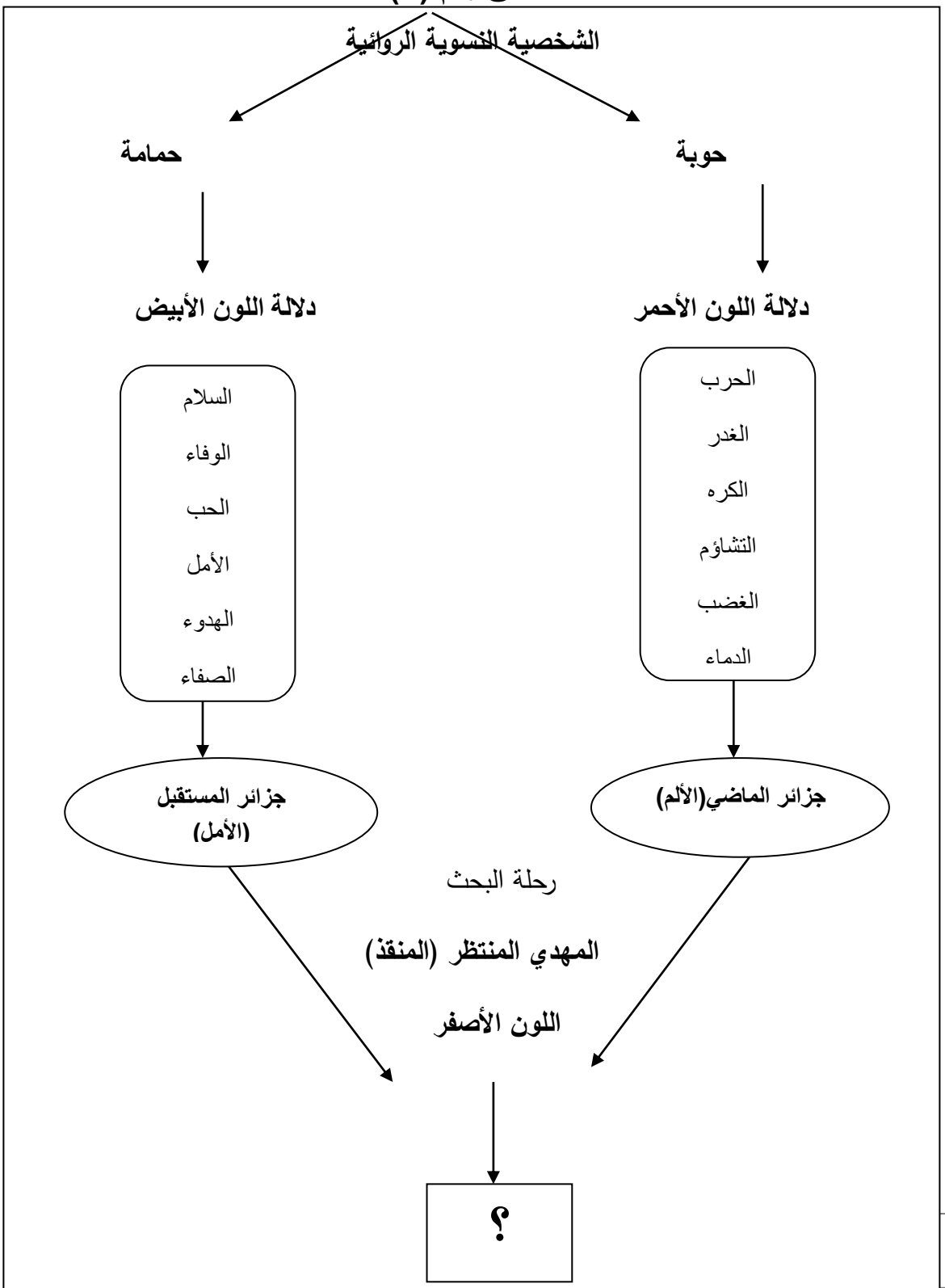
الشخصية النسوية الروائية
حوبة
حمامة
دلالة اللون الأحمر
دلالة اللون الأبيض
الحرب
الغدر
الكره
التشاؤم
الغضب
الدماء
السلام
الوفاء
الحب
الأمل
الهدوء
الصفاء
جزائر الماضي(الألم)
جزائر المستقبل (الأمل)
رحلة البحث
المهدي المنتظر (المنقذ)
اللون الأصفر
؟

الملحق رقم (٤)

الحرب ← الثورات والانتفاضات ضد المستعمر

الغدر ← غدر القياد وشيوخ الزوايا

الكره ← بث المستعمر سموم الحقد والكره في نفوس عملائها ضد الشعب

التشاؤم ← من جراء الواقع المرير

الغضب ← غضب الشعب والمشاركة في مظاهرات ٨ماي ١٩٤٥

الدماء ← قتل القايد عباس لأبناء جلدته وسفك دمائهم، وجرائم السلطات الفرنسية إثر مظاهرات الثامن ماي ١٩٤٥

جدول رقم (٥)

الألوان	الدلالة	ارتباطها بالمتن الروائي	أبعاد الألوان
الأحمر	الهجوم ،الغزو ، ،الشجاعة ،الثأر، الشدة، المشقة، النار، الدم، القتل. العنف، الصراع	–ثأر كل من "العربي" و"بلخير" من القايد عباس– قتل القايد عباس لأبناء قبيلته. وإيذاء زوجة أبيه– قتل السلطات الفرنسية للجزائريين أثنا مظاهرات ماي ١٩٤٥ –انتشار الزوايا والطرق الصوفية.....	البعد الاجتماعي البعد السياسي
	الضوء، النهار،	–الوعي الثقافي –الدعوة إلى نشر العلم ونبذ	البعد الثقافي ساهم

الأصفر	الضياء الأمل ، التفاؤل، التحفيز، النشاط، الانشراح .	الجهل لتحرير الوطن –بناء المدارس والنوادي وتأسيس الصحف والمجلات. –تأسيس الأحزاب–المطالبة بالحرية ونيل الاستقلال– النضال والمقاومة.....	في تأجيج البعد النفسي من خلال الإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن وتفاؤلهم وأملهم في الاستقلال
الأسود	التشاؤم، القمع والاضطهاد، الموت، الخوف، الرعب، السجن، الحرب، الظلم، الألم، الشقاء، الكراهية، الخطيئة، و عدم الاستقامة.	–سواد فترة الاحتلال من خلال اضطهاد المستعمر للشعب وقمعه –اختطاف سلافة الرومية والطاهر ولد لكحل – تفشي الجريمة والإدمان وكثرة العصابات(خلاف التيقر) – جشع المعمر بارال وقهره العروش والاستيلاء على أراضيهم–تدهور الأوضاع الاجتماعية في القرية وانتشار الفقر والأمراض –الانحراف الديني والانحلال الخلقي.....	البعد الاجتماعي

هوامش البحث

[1] – الطيب بودربالة: قراءة في كتاب "سيميائية العنوان "للدكتور بسام قطوس"، السيمياء والنص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الثاني، ١٥،١٦، أفريل ٢٠٠٢، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، منشورات الجامعة، ص٢٥.

[2] – بلقاسم دفة: التحليل السيميائي للبنى السردية "رواية حمام السلام" لنجيب الكيلاني أنموذجا، السيمياء والنص الأدبي، محاضرات الملتقى الثاني، ص ٣٥.

[3]– مريم إبراهيم غبان: اللون ودلالته في الرواية السعودية (١٩٨٠–٢٠٠٥)، مذكرة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية آدابها، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦. ص د.

[4]– ابن الحويني الأخضر ميدني: الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني دراسة سيميائية لغوية في قصائد من الأعمال الشعرية الكاملة، مجلة دمشق، مج ٢١، ع٣–٤، ٢٠٠٥، ص١١٤.

[5]– نفسه، ص١١٦

[6] – مريم إبراهيم غبان: اللون ودلالته في الرواية السعودية (١٩٨٠–٢٠٠٥)،ص٠٨.

[7]–أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج ١، (د ط ت)، (مادة حوب)

[8]– عز الدين جلازجي: حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، دار الروائع، الجزائر، ط٠١، ٢٠١١، ص ١٣١،١٣٢.

[9] – نفسه، ١٣٧.

[10]– حيدر محمد جمال سيد أحمد: شعرية العنونة عز الدين المناصرة أنموذجا، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) مج ١٩، ع ٢، يونيو، ٢٠١١، ص١١.

[11]– مريم إبراهيم غبان: اللون ودلالته في الرواية السعودية، ص٠٢.

[12]– ينظر أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، ط٠٢، ١٩٩٧، ص٧٥، ١٨٤.

[13]– ينظر محمد تونسي جكيب: إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته –عتبة العنوان أنموذجا– مؤتمر كلية الآداب (الجزء الأول)، الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الأقصى، ص٥٥٥. *www.alaqsa.edu.ps/ar/default.asp?edition_id=45&pageid=108*

[14]– أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، ط٠٢،١٩٩٧، ص، ١٥٤.

[15]– الرواية، ص١٣٢.

[16]– ابن منظور: لسان العرب، مج ١١، (مادة رحل).

[17]– محمد تونسي جكيب: إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته –عتبة العنوان أنموذجا، ص ١٥٤.

[18]– ابن منظور: لسان العرب، مج ٠٢، (مادة بحث).

[19]– نفسه: مج ٠٣، (مادة هدى).

[22]– نفسه، ص٤٦

[25]– محمد فريد حجاب: المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، ١٩٨٤، ص٥٤.

[28]– الرواية، ص ٣٨.

[29]– نفسه، ص ٧٨.

[30]– نفسه، ص ٤٧٥.

[31]– نفسه، ص٣٦٣.

[32]– نفسه، ص٣٧٠.

[33]– نفسه، ٤٥٧.

[34]– ينظر أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص ١٥٤.

[35]– ينظر أحمد مختار عمر: اللغة واللون نقلا عن The luscher coulour test. By Mx luscher ،ص ٦٨، ٦٩.

[36]– نفسه، ص١٥٧.